النظام الزراعي
في بلاد السوفييت

للدكتور محمد مأمون عبد السلام

اتساع الروسيا وأثره في الزراعة

ليس في العالم دولة باتساع الروسيا، فساحتها ٨٫٧٦٤٫٠٠٠ ميل مربع ممتدة من أواسط أوربا غرباً إلى المحيط الهادي شرقاً، ومن المنطقة المتجمدة الشمالية شمالا إلى البحر الأسود وبحر الخزر والقوقاز وإيران والصين جنوباً. فبلاد مثل هذه تختلف أجواؤها من البرد القارس في الشمال إلى الحر اللافح في الجنوب، ومن غزارة الأمطار وما يتبعها من الرطوبة إلى الجو الصحراوي الجاف ذي الرياح الحارة. فتكاد تكون روسيا سلسلة من السهول المتسعة الأرجاء تفصلها سلاسل من الجبال وعدة من الأنهار، فالزراعة فيها إذن تمثل زراعة المناطق شبه الحارة، وكذلك الزراعة الصحراوية الجافة، وزراعة المناطق المعتدلة الرطبة والمناطق الباردة الثلجية. وكان يسكن هذه البلاد نحو ١٧٠ مليون نسمة منهم نحو ٨٠٪ من الفلاحين المسخرين لأسيادهم من أسرة القياصرة والنبلاء والأشراف الذين كانوا وحدهم يمتلكون الأرض

حالة الفلاح قبل عهد السوفييت

نعم كان هؤلاء الفلاحون عبيداً أرقاء ينتقلون من سيد إلى سيد، وكان الفلاح يسمى «موجيك»، وهي تصغير كلمة «موج» أي الإنسان بالروسية. ومعنى ذلك أن الفلاح الروسي كان في نظر مستعبديه في عهد القياصرة مخلوقا أدنى من الإنسان كالمنبوذين في الهند، فلا عجب أن وصموه بما يوصم به الفلاح المستعبد في أي بلد آخر بالوحشية والقسوة والكسل واللصوصية والنفاق والغش وغير ذلك من الصفات المنفرة، ونسوا ما وضعه الله فيه من المحاسن الخلقية التي برزت في أوضح شكل بعد نيله حريته. فالفلاح الروسي كغيره من أبناء الطبيعة ماهر في الاستفادة من كل ما حوله فتراه في الغابات الشمالية الروسية يصنع قوارير السوائل من قلف الأشجار، ويجدل الألياف الداخلية لهذا القلف ويصنع منها أحذيته. وتراه في بلاد أكرانيا، حيث تنعدم الأشجار الخشبية يبني أكواخه من قصب الغاب والطين. وترى الفلاح الروسي يصنع سروج خيله بنفسه من الجلود التي يدبغها، فهو لا يترك من منتجات بيئته شيئاً إلا استغله لمصلحته

حالة الفلاح في عهد السوفييت

فلما نشر السوفييت حكمهم في هذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء، حرروا الفلاح من عبوديته، وعاملوا كافة الشعوب والجنسيات التي كانت تحت حكم القياصرة على قدم المساواة، فجعلوا الامبراطورية الروسية القديمة التي تضم ١٨٠ جنسية في إحدى عشرة جمهورية وطنية و ٢٢ جمهورية مستقلة لكل منها دستورها الخاص مع تمتعها بكامل استقلالها وحريتها ومساواتها مع كافة جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأخرى، ولكل من هذه الجمهوريات مطلق الحرية في الانفصال عن الاتحاد السوفيتي متى شاءت. فالاتحاد السوفيتي إذن عبارة عن مجموعة من الأمم المستقلة المرتبطة برباط الثقافة والمصلحة الاقتصادية، وهذه الجمهوريات هي جمهوريات الاتحاد الروسي في أوروبا ثم أكرانيا وبيلوروسيا وكاريليا الفلندية ومولدافيا ولتوانيا ولاتفيا والجمهوريات الاستونية وأذربيجان وجورجستان وأريفان أي أرمينيا وتركمنيان والأزبك والتادجيك والقازاق والكرغز، وذلك عدا للقاطعات المستقلة داخل هذه الجمهوريات التي تمثل نحو أربعين جنسية تتمتع كل منها بكامل حقوقها في إدارة نفسها بنفسها

استصلاح الأراضي والتوسع في الزراعة

مساحة الأراضي المزروعة

كانت مساحة الأراضي المزروعة في الروسيا القيصرية (في سنة ١٩١٣) ٢٥٢ مليون فدان. فلما تولى السوفيت الحكم رأوا أن السكان في الروسيا يزيدون سنة عن سنة حتى أن تعدادهم بلغ في يونيو (سنة ١٩٤١) ١٩٠ مليون نسمة فعملوا على استعمار الموات من الأراضي باستصلاحها ونشر الزراعة شمالا وشرقا في مساحات هائلة لم تمسها يد الزارع من قبل فبلغت مساحة الأراضي الزراعية بجهودهم (في سنة ١٩٢٩) ٢٨٣ مليون فدان وبلغت

٣١٧ مليون فدان فى سنة ١٩٣٥ أى بزيادة قدرها نحو ٦٥ مليون فدان . وقد استصلح السوفيت فى ثلاث سنوات من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٥ خمسة ملايين فدان كانت من قبل مستنقعات ، وأربعة ملايين فدان أخرى فى سنة ١٩٣٦ . وقد استمروا فى التوسع فى الزراعة فى المناطق الشمالية النائية ، وفى الشرق فى الأراضى شبه الجافة حتى بلغت مساحة الأراضى الزراعية فى سنة ١٩٣٧ (٤٢٨ مليون فدان) أى أن مساحة الأراضى الزراعية زادت فى حكمهم عما كانت عليه فى سنة ١٩١٣ (١٧٦ مليون) فدان أى بزيادة نحو ٧٠ ٪ وقد ازدادت المحصولات بهذه النسبة وكانت الزيادة واضحة بصفة خاصة فى المحصولات الصناعية كحاصلات الألياف مثل القطن والكتان والقنب والرامى وغيرها، وفى حاصلات الزيت كالسمسم والفول السودانى وعباد الشمس والسلجم والخروع وبذر الكتان والقرطم وغيرها وفى بنجر السكر . وقد اهتموا بصفة خاصة بالتوسع فى الخضروات فزادوا مساحتها بنحو ضعفين ونصف ، ومحصولات العلف إذ ازدادت مساحتها بنحو أربعة أضعاف ، وأدخلوا محصولات منها جديدة مثل حشيشة السودان وأنواع من الخندقوق والقضب (البرسيم الحجازى) والفصفصة والجلبان وحشيشة التيف وأنواع مختلفة من البرسيم والحشائش النجيلية .

إلغاء الزراعة الفردية وإنشاء الزراعة التجمعية

وقد وضع السوفيت نظامهم الزراعى على أساس جعل موارد الإنتاج ملكا للدولة ، وهم ينفذون إصلاحاتهم طبقاً لمشروعات موضوعة لصالح الشعب عامة لا لمصلحة طبقة خاصة على حساب باقى الطبقات، وبرامجهم موضوعة بحسب الأصول العلمية الحديثة ؛ ولكن مشروعاتهم تتبدل وتتغير طبقاً لتبدل الظروف والأحوال . كما أنهم لا يتقيدون لإتمامها بميعاد خاص ، فهم بذلك يتبعون تعاليم زعيمهم لينين الذى قال : « ليست تعاليمنا قانوناً ثابتاً فستعلمنا الحياة والتجربة لنهتدى إلى الطريق المستقيم ، فخبرة الملايين من الناس وهم يسعون ويعملون تنير لنا الطريق » .

وقد وضعوا نظامهم الزراعى على أساس إلغاء الزراعة الفردية لأنها لا تتفق مع التقدم الزراعى الميكانيكى الحديث ولا تصلح لبلاد متسعة الأرجاء مترامية الأطراف مختلفة الأجواء كالروسيا وعلى إحلال نظام الزراعة الواسعة بالآلات الميكانيكية الحديثة محلها .

وقد دخل السوفييت فى تجارب قاسية ليلوغ هذه الغاية كلفت البلاد الروسية عشرات الملايين من الضحايا وأموالا لا تحصى . فبنوا سياستهم الزراعية على إلغاء الملكية الفردية واستبدالها بإنتاج تجمعى لكيلا يضيعوا المجهود الآدمى من غير مبرر فى الزراعات الفردية الصغيرة . فأنشأوا المزارع الحكومية الواسعة والمزارع التجمعية ومحطات للجرارات والآلات الزراعية لتقوم بجميع العمليات الزراعية .

المزارع الحكومية (مزارع السوفهوز)

رأى السوفيت أن ازدياد مساحة الأراضى وامتداد الزراعة فى المناطق النائية لا يتأتى إلا بإنشاء المزارع الحكومية الواسعة التى سموها باسم «سوفهوز» ، وقد بدأوا إنشاءها من مبدأ حكمهم فبلغ عددها فى سنة ١٩٢٢ ألف مزرعة تقريباً . ومن سياستهم أن يعمل فيها العمال الزراعيون كموظفين برتب ثابت ، وكونت حكومة السوفيت لجنة للحبوب غرضها تنمية مزارع الحبوب الحكومية للحصول على كميات من الحبوب تزيد قليلا فى السنة عن مليون ونصف طن، فأنشأوا ١٥٠ مزرعة حكومية جديدة مساحة أراضيها ١٢ مليون فدان فى جمهورية قزاقستان ، وفى القوقاز الأوسط والسفلى وفى الأورال وشمال القوقاز واوكرانيا وجمهورية البشكير وأنشأوا بعض المزارع الكبيرة فى المناطق الجافة وشبه الجافة ، وكانت أراضى هذه المزارع قبل الانقلاب الزراعى الميكانيكى فى الروسيا لا يمكن الانتفاع بها فى الزراعة

وتعتبر هذه المزارع محاولة من حكومة السوفيت لاستعمار هذه المناطق التى كانت فيما سبق مراعى طبيعية للخيل والأغنام ، ولكى ينتفع بهذه المساحات الهائلة من الأراضى التى طردت منها الأغنام والخيل اعتمد السوفيت اعتماداً كلياً على استعمال الآلات فى الزراعة ليتجنبوا بذلك فعل الرياح الحارة الجافة المحرقة للمحصولات . ولا جدال فى أن رى هذه الأراضى إذا أمكن يأتى بالفائدة المطلوبة ، ولكن هناك صعوبات تجعل ريها باهظ التكاليف ، لذلك اعتمد السوفيت فى سقيها على ثلوج الشتاء ، فهم يحرثونها بعد إزالة المحصول الصيفى ، ثم يزرعونها فى الربيع بعد ذوبان الثلج زراعات متعاقبة من القمح . وقد أنتجت هذه

الأراضي البكر محصولا فاق كل متوسط في الأراضي الروسية الأخرى .

وقد بلغ عدد العمال الزراعيين في هذه المزارع الحكومية في موسم سنة ١٩٣٤ ثلاثة ملايين نسمة فيما يزيد قليلا عن أربعين مليون فدان زرع ثلاثة أرباعها حبوباً . وبلغ عدد المزارع عشرة آلاف مزرعة مساحتها ٢٨ مليون فدان منها مساحات كبيرة لم تزرع بل تركت للرعى

وتتبع المزارع الحكومية أكثر من عشر من الإدارات الحكومية المختلفة ؛ لذلك اختلفت طرق إدارتها والنتائج المتحصلة منها ، فكانت مصلحة المزارع الحكومية تدير ١٧٣ مليون فدان لا يزرع غير تسعها فقط ، وتدير قومسيرية الزراعة ٥٣١ مزرعة مساحتها ١٧ مليون فدان يستغل ثلثاها في تربية الخيل وكذلك لإكثار التقاوى وزراعة القطن والكتان والقنب والحاصلات البقولية والأرز ونباتات المناطق شبه الاستوائية وتربية الحرير والماشية والأغنام والماعز ، وتتبع قومسيريات الزراعة في جمهوريات الاتحاد السوفيتي المختلفة ٦٠٠ مزرعة للخضروات والدجاج والفواكه وكروم العنب ؛ ولقومسيرية صناعات الأغذية نحو هذا العدد من مزارع بنجر السكر والخضروات والبطاطس والدخان والدجاج والخنازير والزيوت العطرية عدا مساحات هائلة من الصوبات الزجاجية . وقد أعطى السوفيت عناية خاصة لصناعة الزيوت العطرية التي تستعمل في الروائح العطرية فخصص لزراعة محصولاتها ٦٠٠٠ فدان في سنة ١٩٣٦ ولا يقوم بهذه الزراعة والصناعة إلا النساء .

وكان لقومسارية التجارة الخارجية ٢٨ مزرعة مساحتها ٧,٠٠٠,٠٠٠ مليون فدان خصصت لتربية الثعالب الفضية والأغنام الفارسية والأرانب وحيوانات الفراء المختلفة .

وكانت قومسارية الصناعات الثقيلة تزرع المحصولات التي يستخرج منها المطاط في مساحة ١٣٠ ألف فدان موزعة في مناطق واسعة وخاصة في مناطق قازاقستان وبحر أزوف والبحر الأسود .

وكان ١٣ مليون فدان تتبع ست قومسيريات مختلفة لتمد هيئات مختلفة تعاونية وغير تعاونية مثل مطاعم المصانع والحوانيت ولتزويد المصالح الحكومية الأخرى المختلفة باحتياجاتها من المواد الخام ، ولم تتعد مساحة الأرض المزروعة في المزرعة الواحدة ألفي فدان

وقد راعت حكومة السوفيت أن تجعل مساحة المزارع الحكومية (السوفهوز) كبيرة جداً لتخفض بذلك نفقات الإنتاج فكانت تتراوح مساحة المزرعة بين ٨٠ — ١١٠ ألف فدان ولكن منها ما كان أكبر من ذلك كثيراً مثال ذلك المزرعة المسماة Gigant أي الضخمة ومساحتها ٦٠٠,٠٠٠ فدان .

ولكن نظام مزارع السوفهوز أخذ يظهر عيوبه ابتداء من سنة ١٩٣١ فقد اتضحت خطورة الاعتماد على نظام زراعة محصول واحد والتمسك به تمسكا شديداً ولذلك عدل باتباع دورة زراعية منظمة . وقد اتضح أيضاً أن مزارع الحبوب متسعة جداً لدرجة يصعب معها إدارتها إدارة ناجحة . لذلك خفضت مساحة المزرعة الواحدة منها في سنة ١٩٣٢ بحيث لا تزيد عن ١٠٨,٠٠٠ فدان على أن تقسم داخليا إلى عدة مزارع صغيرة يدير كل منها مساعد مدير . وقد نتج عن إنشاء مزارع تربية الحيوان العظيمة الاتساع أن الحيوانات كانت تتجمع في قطعان كبيرة مما ساعد على انتشار الأوبئة بينها ، فقد كانت مساحة مزرعة تربية الماشية ٦٣ ألف ميل مربع ومزرعة تربية الأغنام تزيد عن ٤٦ ألف ميل مربع فقسمت هذه المساحات الهائلة إلى مساحات أصغر منها لتسهل إدارتها . وكان من أكبر الأخطاء التي ارتكبت أن استولى عمال الحكومة على الماشية قبل أن تنشأ لها الحظائر اللازمة لإيوائها ويعين لها الكلافون اللازمون للعناية بها . وقد عاقبت حكومة السوفيت الموظفين المسئولين عن هذه الأخطاء بإعدام ثلاثين منهم .

وقد اتضح في النهاية أن تجربة إقامة مزارع السوفهوز قد فشلت تماماً فأعلن ستالين في سنة ١٩٣٣ أنها لا تغطي نفقاتها فيما عدا بضع عشرات منها . وفي نهاية سنة ١٩٣٥ أعلنت الحكومة السوفيتية حل عدد كبير منها وإضافة أراضيها إلى المزارع التجمعية ، ولم يستبق من مزارع السوفهوز غير التي رأوا ضرورة إبقائها للاستغلال على أساس تجاري ، وقد وضعت تحت إدارة ثلاث قومسيريات هي : قومسيرية المزارع الحكومية ، وقومسيرية صناعة الأغذية وقومسيرية الزراعة .

(البقية في العدد القادم) **دكتور محمد أمين عبد السلام**

وكيل قسم أمراض النباتات بوزارة الزراعة المصرية